الفصل السادس
إصلاح حال المحاماة

اقتراحات بإصلاح حال المحاماة

في مخطوط عنوانه "وثيقة إنسانية" تاريخه مارس سنة ١٩٤٣ تحدث لطفي جمعة عن ملف القضية رقم ٢ سنة ١٩٤١ تأديب المحامين ضد محاميين شقيقين نسب إليهما أنهما بين سنتى ١٩٣٤، ١٩٣٧ قد خدشا شرف طائفتهما وحطا من قدرها بقبولهما أجوراً دنيئة ينبغي أن يعف عنها مثلهما واستعانا على ذلك ببعض محترفي الوساطة الذين يشاطرونهما تلك الأجور الزهيدة وهو ما تحرمه بعض مواد اللائحة الداخلية لنقابة المحامين المصدق عليها في ديسمبر ١٩١٣ والتي أشارت إليها إحدى مواد قانون المحامين رقم ١٣٥ لسنة ١٩٣٩.

وتبين من وقائع القضية أن أحد المحاميين المتهمين كان يتقاضى مقدماً أتعاباً مقدارها سبعة قروش ونصف قرش ثم تسلم بعد ذلك مبلغ قرشين ونصف قرش كبقية لتلك الأتعاب ، وقد اعترف المحامي بتقاضيه هذا القدر وأنه وزميله كانا يمارسان هذا العمل منذ بدء التهمة في سنة ١٩٣٤ إلى مارس سنة ١٩٣٧ ، ثم تساءل لطفي جمعة : "كم نقيباً تعاقب على مجلس النقابة وكم وزيراً تولى السلطة في وزارة العدل وكم رئيساً لمحكمة الاستئناف في مدى هذا العقد والسنين ولم يفكر أحد منهم في انتشال حال المهنة من هذه المهواة والوهدة التي أنزلهما إليها الفارسان الشقيقان ، وكم من حقوق الضعفاء والفقراء والمستهترين ضاعت على الناس من الحرية والمال على أيدى هذين الأخوين ، وقد كانت جريمتهما تتم علناً في أفنية المحاكم وعلى أبواب الجلسات بعلم من جميع القضاة ورؤساء المحاكم والمحامين وموظفي المحاكم والمتقاضين؟

إن العدل قد أهدر دمه وأهريق وحقوق الخلق قد استبيحت في سبيل حصول هذين الأخوين على بضعة قروش، دع عنك ما لحق المحاماة والمحامين في القاهرة من الذل والمهانة والاستخفاف والانحدار التدريجي البطيء حتى خربت بيوت ومكاتب كما تتهدم المعابد والهياكل بجائحة من الطبيعة بقدر من الله عقاباً على المعاصي والذنوب ، إن السكوت عمداً عن هذه الجريمة عشر سنوات جريمة متعمدة للقضاء على تلك المهنة التي صارت في هذا العهد مهانة ومذلة ومدرجة للنزول إلى الدرك الأسفل ... سكتت جهات العدل عشر سنوات وبكمت وخرست وأصيبت بالعيّ والعمى والصمم لينخر هذا السوس في عظم تلك المهنة ذات الجلال الجميلة المسجاة ، لأن أولى الأمر وذوي الحل والعقد قد أرادوا إضعافها وإفقار دمها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة في سكون وجلال خليقين بتاريخها العظيم.

إنى أحمد الله لأننى اطلعت على هذا السر ووضعت يدي بالاتفاق المحض وبفعل سير الحوادث ولا دخل لى فيه – على جرثومة البلاء الذي عاناه زملائي الأمجاد ، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

إن رداء المحاماة إذا كان في القديم رمزاً للشرف والمهابة والقدرة ومعونة الضعفاء ومكافحة الباطل ونصرة الحق كما علمنا من الذين لبسوه من قبل أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقانى ونصر الدين زغلول والحسينى وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفى وأخوه أحمد لطفى وإسكندر عمون وعشرات من معاصريهم وأندادهم وبعض الأحياء أمثال أحمد مصطفى ووهيب دوس وغيرهما – فقد صار الرداء على كواهل هذين المحاميين المهتمين علم المهانة والذل والحقارة والاستهتار والدناءة .

إن نقابة المحامين المفروض فيها أنها تسهر على تنقية المحاماة وتطهيرها وتنظيفها هى التى ساعدت على تشجيع هذه الأدران وتنميتها وتقويتها بالإهمال والسكوت عنها وغض الطرف وصمّ الأذن حتى استفحل الشر وكبر

الخطب واتسع الفتق على الراتق لانشغال رؤسائها بأنفسهم ومصالحهم ومنافعهم المادية ورغبة كل فرد منهم أن يحصل على أكبر قدر من الثروة ولأكثر عدد من القضايا المهمة ولا يبالون بما يحدث لسواهم ، وقد جعلوا هذه النقابة من سنة ١٩٢٠ إلى هذه الساعة (مارس سنة ١٩٤٣) ميداناً للتنافس السياسى ومسرحاً لسيادة الأحزاب ومعتركاً لأهل النفوذ من الرؤساء والأعضاء فيقفزون منها إلى مناصب الوزارة ووظائف القضاء .

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يتساءل لطفى جمعه : ماذا يظن أن تكون أسباب انهيار المحاماة فى مصر ؟ وما هى وسائل إصلاحها ؟

يجيب لطفى جمعه على هذا التساؤل بقوله :

يجب علىَّ أن أبحث حقيقة فى أسباب انحطاط المحاماة :

فأولاً : أن هذه المهنة دخيلة على البلاد وهى تقتضى جملة شروط فيمن يمارسها كالاستعداد الفطرى لها والذى يتوافر لأصحاب الصحة الجيدة جدا والعقول الراجحة جدا والفصاحة والبلاغة والخطابة والأخلاق القويمة وحب العدل وقناعة النفس إما بثروة أصيلة وإما بشرف مكتسب يحول دون صاحبها والانحطاط ، وعلم واسع بالقانون وثقافة واسعة فى كل شئ .

ثانياً : أنه وإن يكن المصريون لهم ذلاقة ألسنة وقدرة على الكلام والخطابة بصفة عامة ، إلا أن معظم الصفات المذكورة أعلاه تنقص المحامين .

ثالثاً : دخل هذه الصناعة أكبر عدد ممن ليس لهم استعداد فطرى ولا أخلاق .

رابعاً : أن الروابط المعنوية والأدبية التى ترقى الهيئات معدومة بسبب المنافسة والجهل المتفشى .

خامساً : معظمهم متكالب على المال ، وكثير منهم ليس عندهم فكرة الضمير ولا الكرامة الشخصية .

سادساً : أن الوسط القضائى عند القضاة أنفسهم قد هبط والمرافعات نزلت درجتها والقضايا المهمة التى تشجع المحامى نادرة ٠

سابعاً : فقر الكثرة الساحقة عند المحامين أدى إلى قلة أرزاقهم فتحولوا إلى عمال عقليين يربحون لسد رمقهم ورمق عائلاتهم ٠

ثامناً : أن المبتدئين منهم لايعرفون سابقيهم ، وإذا رأوهم لا يرون فيهم إلا مزاحمين متقدمين فى السن فيتمنون زوالهم حتى إن واحداً من المنتسبين إلى المحاماة حمل على المحامين الشيوخ حملة نكراء فى ورقة سماها تقريراً باقتراح إصلاح المحاماة ، نسى " عمود الخشب " الذى فى عينيه وذكر " الذرة" التى فى عين الآخرين وهى الشيخوخة والعجز عن العمل ٠

تاسعاً : أن انتشار الروح المادية فى مصر صبغ هذه الصناعة بهذا اللون ، فذهبت بهجتها وعظمتها ٠

عاشراً : أن كثيراً من القضاة يحتقرون المحامين الجهلاء ويحسدون الأكفاء ، وقد درج بعضهم على الإساءة إلى الجميع وقد انتزعوا من غرورهم وثبات مراكزهم وانتظام أرزاقهم طمأنينة أنستهم آدابهم المحتمة نحو المحامين ٠

حادى عشر : اشتهر كثير من كبار المحامين بفساد الذمة ٠

اثنا عشر : المبتدئون لا يقتدون ولا يحتذون بفطاحل المحامين ممن يدربونهم على حسن الذمة وإتقان العمل ٠

ثالث عشر : كل شئ فى مصر قد انحط بفعل الاحتلال والأحزاب فتبعته هذه الصناعة بحكم التأثير العام ٠

رابع عشر : لا يدخل كليات الحقوق فى العهد الأخير إلا الذين لم يتمكنوا من دخول الكليات الأخرى ، وإذا تخرجوا فيها فلا يلجأ إلى المحاماة إلا الذين لم يتمكنوا من دخول وظائف الحكومة ٠

خامس عشر : أن النقابة التى كان يظن فيها الخير والعمل على تقدم هذه الصناعة ظهر من سنة ١٩٢٠ أنها هيئة لحماية أعضائها وجلب الوظائف والمنافع لأنفسهم ويعتبرون العمل للمحاماة سخرة ويعملون هم أنفسهم على الحطّ من شأن المحاماة ٠

سادس عشر : أن الحكومة بصفة عامة والسلطات السائدة فى مصر عملت وتعمل على مناهضة هذه المهنة لأنها قاومت الرجال الذين قاموا بالثورات والاضطرابات منذ سنة ١٩١٩ إلى الآن ، ولأن الحركة الوطنية من عهد مصطفى كامل قامت على كواهلهم ، فوجب إضعاف هذه الكواهل وقد نجحوا٠

سابع عشر : درج بعض رجال القضاء والنيابة بجميع درجاتهما على التظاهر بالترفع عن المحامين فى علاقتهم الخاصة حتى ولو كان هؤلاء القضاة والنواب ممن لا يدانون المحامى أخلاقاً ، وقد سرى هذا المسلك إلى عروق موظفى المحاكم تقليداً وتبعاً لرؤسائهم ، فشعر المحامون بشئ من هوان شأنهم مما يعوقهم عن شعور العظمة المؤدى للنجاح ٠

ثامن عشر : علاقة المحامين بموكليهم ، ذلك أن بعض الموكلين سواء أكانوا من المتهمين أو من المماطلين قد نتج عن سوء أخلاقهم فى معاملة المحامين بأكل حقوقهم والشح عليهم والكذب فى أخبارهم – أن ساءت العلاقة بين المحامين وموكليهم ٠

تاسع عشر : طبقة الموظفين عند المحامين من وكلاء وكتبة وخدم والمندسين فى أوساطهم من السماسرة ٠

هذه كلها أسباب مكدرة لأزمة المحاماة فى مصر ولكنها حقيقة وذات أثر فعال فيما انتهت إليه المهنة فى هذه الأيام ٠

خاتمـــــة

—

وبعد ...

فهذه الصفحات تتحدث عن جانب من جوانب سيرة واحـــد مـــن رواد المحاماة الذين أسهموا فى إثراء هذه المهنة الشريفة الجليلة بمرافعاتـــهم الشـــيقة وبحوثهم القانونية والفقهية المتعمقة وشاركوا فى النصـــف الأول مـــن القـــرن العشرين فى وضع تقاليدها وإرساء أخلاقياتها وتثبيت أعرافها ، وأحبـــوا هـــذه الصنعـــة بكل جوارحهم وأخلصوا لها الإخلاص كلـــه ، ولـــم يبخلـــوا علـــى المبتدئين فيها بالنصح والإرشاد والتوجيه ، ولم يترددوا فى الدفاع عنها وإبـــداء الاقتراحات الكفيلة بالنهضة بها .

رحم الله لطفى جمعة إزاء ما قدم لمهنة المحاماة من خدمات وما بـــذل فيها من جهود ، وإننى أرجو أن أكون قد وفقت إلى إبرازها لتكون علامـــات على الطريق وذكرى لأجيال قادمة من شباب المحامين، وما توفيقـــى إلا بـــالله عليه توكلت وإليه أنيب.

رابح لطفى جمعة
٢١ ش أمين الخولى – مصر الجديدة
القاهرة

مصر الجديدة فى ٢٠٠٤/١/١٨